

الحلقة الثالثة عشرة

سفر الجامعة

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. بدأنا قبل عدة لقاءات بدراسة سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

وفي اللقاء الماضي تابع سليمان الحكيم حديثه عن ملاحظاته العامة حول الحياة. فتكلم عن الموت وعودة جسد الإنسان إلى التراب. وتساءل الحكيم إن كانت روح الإنسان تصعد إلى العلاء. وتبين لنا من كلمة الله، أن الموت ليس هو نهاية كل شيء، إذ هناك رجاء بالقيامة عندما نؤمن بالمخلص المسيح.

هل تنهك نفسك في العمل مستمعي لكي تحصل على المزيد والمزيد؟ وهل تنظر إلى الناس الأغنياء من حولك وتسعى لكي تصل إلى مستواهم في العيش؟ وهل تعلم أن الإنسان كثيراً ما يبذل جهداً أكبر، غيرة وحسداً من الآخرين؟ كتب سليمان الحكيم قائلاً: « ورأيت كل التعب وكل فلاح عمل أنه حسد الإنسان من قريبه. وهذا أيضاً باطل وقبض الريح » (الجامعة ٤:٤). وبتعبير آخر يقول الحكيم هنا: أنه رأى أن كل تعب الإنسان ومنجزاته، ناتجة عن حسده لقريبه. وهذا أيضاً باطل وقبض الريح.

من الطبيعي أن يعمل الإنسان لتحصيل معيشته، وتأمين مستوى جيد له ولعائلته. لكن عندما يبذل جهداً أكبر، ويُنهك نفسه نهراً وليلاً، ليكون على مستوى غيره من الناس، فإن الأمر يصبح غير سليم، لا بل مؤذي ومدمر لحياته. لأن الدافع وراء هذا الجهد الزائد هو بالحقيقة حسده من الآخرين، وهذا الدافع غير صحيح البتة. إن إنهك الجسد قد يؤذيه صحياً، ويدمر حياته العائلية مع زوجته، وعلاقاته مع أولاده والمحيطين به، إذ لن يبقى عنده وقت يقضيه معهم. وهكذا يقع في مشاكل هامة عليه أن يعالجها.

مستمعي الكريم، هل يدفعك الحسد إلى بذل المزيد من الجهد والركض وراء المال ومهما كلفك الأمر؟ لهذا لم يكن غريباً أن يصف الحكيم هذا الوضع بأنه باطل، لأن الدافع له غير سليم. وهو وإن حقق الإنسان من خلاله ما يريد، لكنه يدمر في المقابل أموراً أخرى هامة في حياته.

لكن سليمان الحكيم عاد وتحدّث عن نوع آخر من الناس، وهم الناس الكسالى. فكتب قائلاً: «الكسلان يأكل لحمه وهو طاوٍ يديه» (الجامعة ٤:٥). أي أن الكسلان بعدم العمل بيديه، يضر نفسه ومستقبل حياته. وهذا أيضاً أمر غير سليم طبعاً. إذ على الإنسان أن يعمل ليحصل معيشته. ولقد حذرنا سليمان الحكيم في سفر الأمثال من الكسل. فكتب قائلاً: «فإلى متى تظل راقداً أيها الكسول؟ متى تهب من نومك؟ فإن بعض النوم، ثم بعض الرقاد، وطىّ اليدين للهجوع. تجعل الفقر يُقبل عليك كقاطع طريق، والفاقة كغاز مسلّح» (أمثال ٦:٩-١١).

طبيعي أن الكسل أمر قبيح، ويؤدي إلى فقر الإنسان. فالاجتهاد والتعب هما من سنّة الحياة. وقديماً قال الله للإنسان: «بعرق وجهك تأكل خبزاً» (تكوين ٣:١٩). أي بالتعب والجهد تحصل معيشتك. وعندما يخالف الإنسان سنّة الحياة، فمن البديهي أن يحصل الفقر والحاجة.

إن الأمر الذي أراد الحكيم قوله من هاتين الحكمتين اللتين تكلمنا عنهما في لقاء اليوم. أن إنهاك الجسد، وبذل الجهد الزائد بدافع الحسد من جهة، والكسل من جهة أخرى، أمران فاسدان. يكشفان عن جهل الإنسان بواقع الحياة، وعدم إحساس بالمسؤولية، ويبعدانه عن الحكمة الحقة. وبتعبير آخر إن الحكيم هو من يبتعد عن الكسل، ويجتهد بأمانة وإخلاص لكي يحصل معيشته، دون حسد أو طمع، أو رغبة في مجارة الآخرين. ولهذا عاد سليمان الحكيم وكتب قائلاً: «حفنة راحة خير من حفنتي تعب وقبض الريح» (الجامعة ٤:٦). فماذا قصد الحكيم من هذه الحكمة يا ترى؟

أجل، ماذا قصد الحكيم من هذه الحكمة يا ترى؟ لقد أراد الحكيم القول، أن العمل بحق يأتي بنتيجة، وإن كانت متواضعة، حفنة واحدة. أما العمل بحسد، وإن بدا حسب الظاهر أنه كان أفضل، حفنتين، لكن نتيجته تكون الخسارة وقبض الريح. وبتعبير آخر كما يقول المثل: القناعة كنز لا يفنى. فأن يقنع الإنسان بما حصله بجهد، أفضل من أن يُنهك جسده عبثاً، وتكون النتيجة دماراً على حياته وعلاقاته مع الآخرين. وكما قال سليمان الحكيم أيضاً في مثل آخر: «القليل مع العدل خير من دخل جزيل بغير حق» (أمثال ١٦:٨).

وهو ما أكده الرسول بولس من رسل المسيحية الأوائل، عندما حذر قائلاً: «وأما التقوى مع القناعة فهي تجارة عظيمة... وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون في تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبيّة ومضرة تُغرق الناس في العطب والهلاك»

(اتيموثاوس ٦: ٦-٩). إن الحل إذن أن يعمل الإنسان ويتعب ويجتهد، وأن يقنع بما يحصله. لا أن يحسد، ويسعى لكي يكون غنياً على حساب مبادئه، وراحة جسده وعلاقاته مع الآخرين. وبتعبير آخر أن لا يجازف بما يملكه، فتكون النتيجة كما ذكر الرسول بولس، العطب والهلاك.

مستمعي الكريم، لقد تحدث الرسول بولس عن التقوى مع القناعة أنها تجارة عظيمة. إن التقوى تعني معرفة الله حق المعرفة. وهذا لن يتم إلا إذا اختبر الإنسان خلاص المسيح المجاني. فهل لديك مستمعي هذه التقوى؟ وهل أنت قنوع بما تحصله؟ إذا أردت مستمعي أن تحصل على التقوى والقناعة، تعال تائباً إلى الله، ومؤمناً بالمخلص المسيح، الذي وحده يقدر أن يحررك من عبودية الخطيئة، ويهبك الغفران والحياة الأبدية، ويجعلك من أولاد الله. فهل تراك تؤمن بهذا المخلص الفريد؟